حميد المرجـبي.. رجـل صنع تاريخًا

د. محـمد صـابر عرب

لعل من الصعب توصيف الحالة العربية الراهنة والتي سوف يقف أمامها المؤرخون خلال العقود وربما القرون القادمة، وقد استعصى عليهم إيجاد تفسيرات منطقية لأحوال أمة أتيح لها أن تتبوأ مكانة لائقة في الحضارة المعاصرة؛ لكن أهلها أصروا على أن يبقوا على هامش الحضارة الإنسانية.

لعلنا ونحن نعايش واقعنا المأساوي نعود بذاكرتنا إلى صفحات من تاريخ أمتنا؛ لعلها تبعث فينا الأمل، فما أحوجنا إلى أن نُذكِّر أبناءنا وأحفادنا بأننا كنا يومًا أمةً لها تاريخ، لقد استوقفتني شخصية "حميد المرجبي"؛ هذه الشخصية العربية المدهشة والذي ولد ما بين عامي ١٨٣٠ و ١٨٤٠ في مدينة طابورة وقتئذ وكانت تابعة لمقاطعات الكونغو، وكان والده قد هاجر من عُمان إلى شرق أفريقية في بدايات عصر سعيد بن سلطان.

لقد ولد المرجبي خلال فترة تاريخية يعبر عنها المثل السوحيلي الشهير: "إذا دقَّت الطبول في زنجبار تراقص الناس طربًا في البحيرات الاستوائية"، دلالة على أن الثقافة العربية بكل مفرداتها قد عمت المنطقة من سواحل زنجبار شرقًا وحتى منطقة البحيرات الاستوائية في قلب القارة السوداء غربًا، حيث أقيمت المدارس وشيدت المحطات التجارية والمساجد وأصبحت اللغة العربية لغة العرب والأفارقة معًا، لدرجة أن ما كان يحدث في زنجبار كان يصل فورًا إلى البحيرات الاستوائية.

وفي ظل هذا الشموخ العربي نشأ حميد المرجبي الذي مارس مهنة التجارة في عمق القارة الأفريقية وذاع اسمه بين القبائل الأفريقية؛ التي كسب ودها ومحبتها، وفي عام ١٨٦٧ أحرز نجاحًا كبيرًا حينما تمكن من ضم الأراضي الواقعة بين جنوب بحيرة تنجانيقا وبحيرة ميروي إلى نفوذه. وفي عام ١٨٧٠ قاد حملة لضم المناطق الواقعة بين فرعين من فروع الكونغو في مقاطعة أوتيرا وأخذ يمارس سيطرة سياسية وتجارية وخصوصًا وقد أجمعت القبائل الأفريقية على اللجوء إليه للفصل في المنازعات التي تنشب بين القبائل.

لقد تجاوز المرجبي اهتمام الأفارقة إلى المستكشفين الأوربيين من أمثال "لفنجستون" و"استانلي" اللذين اعتمدا عليه في كشوفاتهما داخل القارة

وبادلاه تقديرًا واحترامًا، لكن الرجل أدرك طبيعة مهمتهما الاستعمارية، لذا راح يؤلب عليهما القبائل مما كان سببًا في تدخل السلطات البريطانية التي ضغطت على السلطان "برغش" – سلطان زنجبار- لكي يستدعي المرجبي إلى زنجبار التي عاد إليها عام ١٨٨٢، وقد مارس القنصل البريطاني السير جون kirk ضغوطًا على السلطان "برغش" لكي يمكِّن بلجيكا من الاستيلاء على الكونغو حتى لا تقع في أيدي الفرنسيين.

لعل المرجبي قد خضع لتأثير الإنجليز والبلجيك وتحت الإغراءات عاد إلى الكونغو ومعه كميات كبيرة من الأسلحة للسيطرة على أعالي الكونغو لكن السلطان برغش بن سعيد خشي أن تتحول التجارة الأفريقية من زنجبار إلى غرب أفريقية؛ لذا حاول استمالة المرجبي وعينه واليًا على طابورة وطلب منه التوسع في الكونغو ووسط أفريقيا باسم السلطنة العربية في زنجبار وأسرع المرجبي بالاستجابة لأوامر السلطان، واستطاع خلال ثلاث سنوات ١٨٨٣ – ١٨٨٦ أن يؤكد نفوذ السلطنة العربية في أفريقية الداخلية، حيث شُيِّدت المدارس والمساجد والتكايا والأسبلة وأصبحت اللغة العربية لغة الأفارقة والعرب معًا.

لقد نجح المرجبي في السيطرة على معظم مقاطعات الكونغو وعيَّن وكلاء له لكي يشيعوا الأمن ويجمعوا الضرائب وتمكن من إقامة تنظيم سياسي واقتصادي امتد في عمق القارة بفضل الانتشار العربي الذي واكب عمليات المرجبي، لكن هذا التقدم ما لبث أن توقف عام ١٨٨٥ حينما اعترفت الدول الاستعمارية بدولة الكونغو الحرة خلال انعقاد مؤتمر برلين ١٨٨٤/١٨٨٥، إضافة إلى اتفاق بريطانيا وفرنسا وألمانيا على تقسيم سلطنة زنجبار في العام التالي ١٨٨٦. وبموجب هذا الاتفاق تم إجبار سلطنة زنجبار على التنازل عن المناطق الداخلية والاكتفاء بنفوذ سلطنة زنجبار العربية على المناطق الواقعة على الساحل الشرقي من أفريقية من "لامو" شمالاً حتى "بنجابي" جنوبًا بعمق في الداخل لا يتجاوز سوى عدة أميال في دائرة قطرها عشرة أميال شملت جزيرتي "بمبا" و"زنجبار" وبعض الجزر الصغيرة المجاورة لهما.

لقد أدرك المرحبي أن الدول الاستعمارية الكبرى تحاصر نشاطه في كل مكان، ومع ذلك فقد حاول الاحتفاظ بالجزء الشرقي من الكونغو (شلالات ستانلي) لكن ما لبث أن اصطدم بدولة الكونغو الحرة التي اضطرت إلى تعيينه حاكمًا على هذه المناطق بهدف الاستعانة بنفوذه. وفي عام ١٨٨٧ عقد مع ستانلي - الذي كان قد عُيِّن في ذلك الوقت قائدًا لحملة إنقاذ أمين باشا في

مديرية خط الاستواء- اتفاقية تم بموجبها تنصيب حميد المرجبي حاكمًا عامًا على الكونغو بمرتب شهري ثلاثون جنيهًا.

لعل الرجل قد فكر طويلاً قبل التوقيع على هذه الاتفاقية؛ لكنه قد أدرك تفكك سلطنة زنجبار وعدم الاعتماد عليها لتأكيد نفوذه في الداخل؛ لذا بادر بالتوقيع. وبمجرد أن استقرت الأوضاع للدولة الجديدة، أقدم البلجيك على عزل المرجبي من منصبه حيث عاد إلى زنجبار وتوفي بعدها بسنوات قليلة.

لعل نهاية المرجبي تمثل انتهاء دور العرب في الكونغو ووسط أفريقية بعد أن تبددت الآمال العريضة في إيجاد تنظيم عربي أفريقي في الداخل يمكن أن يلحق بالسلطنة العربية على الساحل.

لقد استفادت دولة الكونغو فائدة كبيرة من الجهود التي بذلها العرب في إنشاء المحطات والمراكز التجارية وإتباع نظام دقيق في النقل النهري.

واللافت للنظر أن توغل العرب في داخل القارة لم يقتصر على الكونغو؛ وإنما كان لهم السبق في التوغل في منطقة البحيرات الاستوائية، لكنهم لم يتمكنوا من تأسيس ممالك أو إمارات لهم على نحو ما فعلوه في الساحل نظرًا لصعوبة المواصلات، إضافة إلى ما لمسوه من وجود تشكيلات محلية على جانب كبير من القوة والتنظيم؛ لذا اكتفوا بتوثيق العلاقات التجارية معها، ولا شك أن وصول العرب إلى المقاطعات التي تتكون منها أوغندة كان له أكبر الأثر في تحول الكثير من الأفارقة إلى الدين الإسلامي. ومما يذكر أن ملك بوغندة الذي كان يلقب بـ "الكاباكا" رحَّب بالعرب ترحيبًا كبيرًا.

لقد دخل العرب في علاقات مع الأفارقة وسكنوا كثيرا من المناطق الأفريقية وذلك قبل أن يصل إليها الاستعمار الأوربي، والمؤكد أن الكثير مما سجله العرب عن علاقاتهم بالأفارقة قد مسته يد الضياع؛ لذا فنحن في حاجة إلى دراسات موثقة عن دور العرب وتأثيرهم الحضاري في أواسط القارة الأفريقية وخصوصًا في مناطق الكونغو والبحيرات الاستوائية اعتمادًا على ما كتبه الرحالة المستكشفون الأوربيون من رواد حركة التبشير والكشف

الجغرافي، وخصوصًا وقد استفادوا جميعًا من المراكز التجارية الحضارية التي شيدها العرب على طول طرق القوافل التي كانت بمثابة مراكز إشعاع حضاري ساهمت في نقل المؤثرات العربية والإسلامية إلى الأفارقة، كما ساهمت بشكل لافت في تسليط الأضواء على مجاهل القارة، لذا يمكننا القول بأن الكشوف الجغرافية التي قام بها الأوربيون في القارة الأفريقية خلال القرن التاسع عشر لم تكن في حقيقتها إلا تسجيلاً علميًّا لمناطق وشعوب سبق أن عرفها العرب وساهموا في نموها وتطورها، وجاء الأوربيون لكي يسرقوا ما أنجزه العرب، وهو أمر يتكرر كثيرًا في تاريخ أمتنا التي لم تستوعب الدرس بعد.

د. محمد صابر عرب
رئيس الهيئة العامة لدار الكتب
والوثائق القومية المصرية
Email: chairman@darelkotob.gov.eg